البصرة في مرايا الاستشراق قراءة ثقافية في أدب الرحلات الحديث

الهيمنة في "أرض النخيل" أنموذجاً

م.م. علي عباس هادي/ مديرية تربية البصرة

journalofstudies@gmail.com

الملخص:

يسعى هذا البحث إلى دراسة صورة البصرة أرضا وشعبا في مرآة الإنتاج الرحلي الاستشراقي في أواسط العقد الثاني من القرن العشرين، كمصدر تاريخي ثقافي أدبي قلّما يتم الاستناد عليه، لتبيان المنطلقات الأيديولوجية والثقافية والفنية التي أسهمت بطرق شتى في تشكيل المخيال الغربي وما يتصل به. تجاه مجتمعات الشرق عموما والعراق والبصرة بالخصوص. كما يكشف هذا البحث عن الدوافع الحقيقية التي تحكمت في الأديب المستشرق لكتابة رحلته التي توسّلت بالبصرة كفضاء واقعي لتأثيث أحداثها، بشكل فجّ يمزج بين الواقع والخيال، ما ساهم بطريقة أو بأخرى في تشكيل (واقع) بصري مزيف، لا يستطيع العيش إلا بالاعتماد على الآخر وحضارته، مقابل التبشير بمهمة الرجل الأبيض الحضارية المزعومة، التي تعطيه الحق في استعمار الشعوب الأخرى، ناقلاً ذلك عبر سردية لا تخلو من جمالية. ولتبيان هذه الفكرة، اخترنا التركيز على أنموذج رحلة (أرض النخيل) للكاتب سي. أم. كرستجي بكالوريوس في الآداب جامعة أكسفورد.

الكلمات المفتاحية: (الاستشراق، الهيمنة، أدب الرحلة، أرض النخيل، البصرة).

Basra in the mirrors of Orientalism, a cultural reading in modern travel literature

Hegemony in the "land of palm trees" as a model

Ali Abbas Hadi / Directorate of Education of Basra

Abstracts:

This research seeks to study the image of Basra, land and people, in the mirror of the orientalist nomadic production in the middle of the second decade of the twentieth century, as a historical, cultural and literary source that is rarely relied upon, to show the ideological, cultural and artistic starting points that contributed in various ways to shaping the Western imagination and what is related to it. towards the societies of the East in general and Iraq and Basra in particular. This research also reveals the real motives that controlled the orientalist writer to write his journey, which begged Basra as a realistic space to furnish its events, in a crude way that mixes reality and imagination, which contributed in one way or another to the formation of a false visual (reality), that can only live by relying on the other and his civilization. , in exchange for preaching the alleged civilizing mission of the white man, which gives him the right to colonize other peoples, conveying this through a narrative that is not devoid of aesthetics. To demonstrate this idea, we chose to focus on the model of the "Land of the Palms" trip, written by C. Mother. Christie's Bachelor of Arts from Oxford University.

Keywords: (Orientalism, hegemony, travel literature, the land of palm trees, Basra).

تمهيد:

لقد أدى اتساع القاعدة الاقتصادية في أوروبا وازدهار التبادل التجاري وظهور الرأسمالية إلى تكثيف نشاط الرحلات "بغية الكشف والتوسع الإقليمي، وجلب الموارد الطبيعية من خارج أوروبا للاستخدام الصناعي وفتح أسواق عالمية للمنتجات

، وفي هذا السياق لعبت الرحلات، دورا هاما في تزويد الفكر الأوروبي بالمعلومات عن الإنسان والعالم بصورة عامة وعن الشرق بصورة خاصة.

وفي كتابه "الاستشراق" الذي صدر عام ١٩٧٨ تتبع إدوارد سعيد الاستشراق منذ بدايته كهواية للرحالة والمستكشفين، إلى أن بلغ ذروته في القرن التاسع عشر حين عمل كثير من المستشرقين كموظفين في وزارات الخارجية والحربية وأجهزة المخابرات التابعة لحكوماتهم. فوضعت أسس وقواعد وتقاليد توظيف الدراسة والعلم والمعرفة بالشرق، لخدمة السيطرة على الشرق ومدّ أطراف الإمبراطورية وتوسيعها من خلال إيهام الإنسان الشرقي بأن كلمة (شرق) تعادل معاني الشذوذ والانحطاط والاختلاف والتخلّف الكامل عن كلمة (غرب) التي تعني التقدم والتحضّر والتمدّن والرقي[١].

ويرى إدوارد سعيد في الأدباء والروائيين الغربيين الذين تناولوا الشرق في أعمالهم، من خلّص تلاميذ مدرسة الاستشراق، خاصة تلك الأعمال التي تقع ضمن (أدب الرحلات) والتي بدأ يتكشف منظورها الاستعماري مع ظهور النظريات ذات القدرة على التفكيك والفحص والتنوير والتفسير كالبنيوية والأسلوبية والتاريخية والسوسيولوجية والأنثروبولوجية والتفكيكية وما بعد الكولونيالية والتي استطاعت التوغل في دهاليز العمل المعتمة وإضاءة حقائقه الدفينة. ومهما ادّعى الأديب فإنه لا يستطيع التخلص من جذوره السوسيولوجية والثقافية والتاريخية وحتى الكولونيالية؛ لأن عقله الباطن يمكنه أن ينضح على ما يكتب دون أن يشعر، والعبرة لدى المتلقين في البنية التحتية التي يقوم عليها العمل الأدبي في هيئته وشكله الظاهري[٢].

ومن هنا فإن كاتب رحلة "أرض النخيل" الهندي (سي. ام. كرستجي) الذي درس الآداب في جامعة أكسفورد وانضم إلى قافلة المستعمرين البريطانيين والمجندين الهنود لا

يبتعد في رحلته عن تلك الرؤية الاستشراقية رغم كونه هنديا "فالمستشرق كل من يعمل بالتدريس أو الكتابة أو إجراء بحوث في موضوعات خاصة بالشرق، سواء كان ذلك في مجال الأنثروبولوجيا أي علم الإنسان، أو علم الاجتماع، أو التاريخ، أو فقه اللغة، وسواء كان ذلك يتصل بجوانب الشرق العامة أو الخاصة"(٣)، حيث يتضح في نقاط عديدة من الكتاب استلابه الفكري، رغم ثقافته الواسعة، في رؤيته لدور بريطانيا وأوروبا آنذاك.

وتعد هذه الرحلة التي زار كرستجي فيها منطقة الخليج العربي عامة والبصرة خاصة خلال الحرب العالمية الأولى بين عامي ١٩١٦– ١٩١٧ وثيقة مهمة عن تلك المنطقة في مرحلة من مراحل الاحتلال البريطاني للبصرة، وما كتبه عن هذه الرحلة تحت عنوان "أرض النخيل" هو في نهاية الأمر محصلة رؤيته التي ينطلق فيها من موقعه السياسي والفكري والديني ونظرته إلى الشعوب الأخرى(٤).

المطلب الأول:

أهمية البصرة في مرآة الرحلة

في ظل الاحتلال البريطاني للبصرة وبدعوى وجوب عدم حرمان وادي الرافدين من فرصة التمتع بخيراتها وبنظرة فوقية تكرس مركزية السلطة البريطانية على أرض الرافدين ينطلق كرستجي كاتب رحلة (أرض النخيل) في بيان أهمية هذه الأرض قائلا: "**يجب أن لا تحرم بلاد الرافدين من الفرصة السانحة لها الآن، وهي الفرصة التي أتاحها لها السلم البريطاني، إذ كانت هذه الأرض في الماضي تفيض بالخيرات وتنعم بالرخاء والحرية**"(٥). وينقل هذا الكاتب عن الخبراء أن وفرة إمكانات هذه الأرض "**تتيح لها أن تتحول إلى موطن حقيقي للثروة والغنى**"(٦)، لكن سرعان ما ينكشف أن هذه الثروة يراد لها أن تتحول إلى السيادة البريطانية كي "**تصل إلى حد التعويض عن أكثر من نصف تكاليف هذه الحرب**

الدائرة الآن"[٧] وهي الحرب العالمية الأولى التي كانت دائرة أثناء كتابة هذه الرحلة. كما يُراد لهذه البلاد في ظل إدارة يصفها كرستجي بأنها "**رشيدة، نزيهة، قادرة، وجريئة كالإدارة القائمة حاليا تحت الحكم البريطاني"**[٨] أن "**تزدهر وتنتعش حتما إلى حد كبير وفي مجالات متنوعة وبالأخص كبلد منتج للقمح والقطن"**[٩]؛ لا من أجل أبناء هذه البلاد وإنما ليصب هذا الإنتاج في مصلحة المستعمِر البريطاني. ويؤكد ذلك استشهاد كرستجي بالحكم الروماني إذ يقول: "**في أثناء الحكم الروماني الذي ساد أنحاء واسعة من العالم كانت بلاد الرافدين تعد واحدة من كبار مخازن الغلال بالنسبة لأوروبا"**[١٠]، ومن أجل الحصول على خيرات هذه البلاد على الوجه الذي تبتغيه الدولة المستعمِرة فلابد أن تعود بلاد الرافدين إلى سابق عهدها كمخزن كبير للغلال بالنسبة لأوروبا، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا "**إذا توافر لها ري مناسب ومواصلات سهلة في البر والنهر"**[١١]، ولم يكن الحصول على هذه المرافق "الضرورية" للمستعمِر بالأمر الصعب عليه، خصوصا "**مع وقوع السكك الحديدية ونهري الفرات ودجلة وتابعهما الكبير شط العرب في القبضة البريطانية"**[١٢].

ويرى كرستجي أن المزايا التي تتمتع بها أرض الرافدين مضافا لها "**عزم ونشاط ومهارة وإقدام البريطانيين والهنود"**[١٣] ستضمن مستقبلا باهرا لهذه المستعمَرة. وهذه المزايا تنتظر إشارة البدء "**من مهندس الري الحديث لكي تفتح أبوابها وتزود نصف سكان القارة بالغذاء"**[١٤]. ومن هنا تتضح أهمية الهيمنة على بلاد الرافدين حيث يبدو من سياق حديث كرستجي أن واحدا من أهداف الاستعمار البريطاني في هذه الأرض هو تزويد سكان أوروبا بالغذاء.

إن أهمية العراق الذي يصرح الكاتب بأسماء بعض مدنه ذات الأهمية الكبيرة الواقعة على ضفاف نهر دجلة كالموصل وسامراء وبغداد لا تقتصر على تزويد سكان قارة أوروبا

بالغذاء بل تتعدى إلى أبعد من ذلك، فقد ذكر الكاتب أهمية الروافد العراقية وما تمثله في العصور القديمة من ممرات مائية تاريخية للتجارة بين أوروبا وكافة أنحاء آسيا، مشيرا إلى التلميحات الخاصة بأحجامها ومميزات تفوقها الواردة في الأدبين العربي والفارسي(١٥) مثل قول الشاعر جلال الدين الرومي في قصيدة المثنوي:

"فيا من مقامك عند الغدير المالح! أنى لك أن تعرف الشط وجيحون والفرات؟"(١٦).

كما يشير الكاتب إلى القرنة كواحدة من مدن البصرة ذات الأهمية العسكرية، إذ إنها كملتقى للروافد المائية لفتت في السابق انتباه جون مالكوم(١٧) فأوصى بالسيطرة عليها؛ لأنه تصور أن الاستيلاء على هذا الموقع وتحصينه "**سيكبح جماح العشائر العربية والقبائل الأخرى المتمردة والسكان الذين يقطنون أو يجوبون هذه الأنحاء، كما سيمارس نفوذا مؤثرا على جميع البلدان المشاكسة المحاذية لهذه الروافد من بغداد إلى البصرة. ولم يتوقع الحاكم العام والمحارب الكبير آنذاك سوى الشيء القليل من هذا القبيل**"(١٨) ثم زحفت القوات البريطانية بعد ذلك بمائة عام و"**احتلت القرنة واحتفظت بها كواحدة من أهم مواقعها العسكرية**"(١٩) .

المطلب الثاني

تعاقب قوى الهيمنة في أرض النخيل

لا يكاد العراق بشكل عام والبصرة بالخصوص على مر الأزمان يخرج من سيطرة قوة مهيمنة إلا ودخل في أخرى، فقد أشار كاتب رحلة (أرض النخيل) لسيادة وازدهار امبراطوريات الآشوريين، والبابليين، والميديين، والفرس، في الأزمنة الغابرة على أرض الرافدين، كما يشير للنكبات المروعة التي حلت بتلك الأرض على أيدي اليهود الشرقيين والمغول الذين قوضوا الخلافة وحضارتها، مخلفين وراءهم المجاعة والدمار(٢٠).

ومع استمرار حالة الدمار التي خلفتها هيمنة القوى السابقة جاءت السيطرة التركية على أرض الرافدين، فقد ذكر كرستجي أن الأتراك احتلوا البصرة عام ١٦٦٨م، ثم أصبحت مسرحا للعديد من الثورات، وبعد ذلك استولى عليها الفرس عام ١٧٧٧ بعد حصار طويل دام تسعة شهور، ليستمر ذلك عشرة أعوام قبل أن يستعيدها الأتراك عام ١٧٨٧م(٢١).

ولم يكن كرستجي راضيا عن الأتراك وسيطرتهم على هذه البلاد، فهم بزعمه "**لم يعملوا سوى القليل لإحياء مجدها التليد وإعادة الازدهار إليها**"(٢٢)، كما يشير إلى عدم رضا أهالي البصرة الذين لم يخالطهم "**أدنى قدر من المودة نحو التركي**"(٢٣) قائلا "**وهم من دون شك على أتم الاستعداد للتخلي عن التركي وأفعاله وأن يسلموا أمرهم لأسيادهم الجدد**"(٢٤)، مشيرا بـ(الأسياد الجدد) للبريطانيين، وكأن هؤلاء الأهالي عبيد تتداولهم أيدي الأسياد الواحدة تلو الأخرى.

وبعد إعلان بريطانيا الحرب ضد تركيا عام ١٩١٤م أصبحت ولاية البصرة التي تضم مدن القرنة، العمارة، كوت العمارة، الناصرية، سوق الشيوخ، وغيرها من المدن فضلا عن عاصمتها مدينة البصرة خاضعة للسيادة البريطانية "**وطرد منها التركي وحكمه الجائر العقيم**"(٢٥). ويظهر جليا ما يدور في خلد الكاتب، فهو يعبر عن البصرة بأنها لم تكن غير فريسة سهلة تتناهشها أضراس القوى المهيمنة، فقد وقعت المدينة بعد سنوات طويلة من الخضوع للحكم التركي "**فريسة سهلة في أيدي القوات البريطانية في مرحلة مبكرة من هذه الحرب العالمية التي لا تزال تدور رحاها حتى الآن وذلك عندما ألقت تركيا بقدرها ومصيرها في أتون العار والدمار إلى جانب الألمان ضد بريطانيا العظمى وحلفائها**"(٢٦). وهكذا تصبح البصرة مقاطعة مملوكة للبريطاني يتصرف بها كيف شاءت مصلحته "**ولم يدر بخلد أي إنسان آنذاك أدنى قدر من التفكير بأن البصرة ستكون في عام ١٩١٦م من الممتلكات**

البريطانية – الهندية وتصبح المقر العام لأقوى الجيوش التي غادرت شواطئ الهند من أجل الفتوحات الخارجية"[٢٧]. ولم يكن هذا التعبير الوحيد من قبل الكاتب بأن البصرة مملوكة لبريطانيا، بل تكرر ذلك لعدة مرات منها قوله "**ومما يدعو للاستبشار أنها أصبحت الآن بريطانية عن طريق القوة العسكرية وعبر الحماقات الرعناء التي ارتكبها مالكوها السابقون"**[٢٨].

ووفق اعتقاده بوقوع البصرة تحت الملكية البريطانية سيكون من الطبيعي أن يدافع كرستجي دفاعا مستميتا عن بقائها كمقاطعة بريطانية لا يجب التنازل عنها بأي حال من الأحوال فيصف التخلي عن البصرة بالحماقة إذ يقول "**يسود اعتقاد عام بأنها ستكون حماقة لا نظير لها ولا مبرر لها إذا تخلت بريطانيا العظمى عنها"**[٢٩]، ويذهب إلى أبعد من ذلك عندما يشير إلى تعذر التفكير في احتمال إعادتها للأتراك حيث يقول "**فقد أصبح من المتعذر التفكير في احتمال إعادة هذه البلاد التي انتزعت من تركيا بقوة السلاح البريطاني ـ الهندي وبذلت من أجلها تضحيات جسيمة إلى الدولة التي أساءت استخدامها لقرون عديدة واستغلتها لأغراضها الأنانية وأهوائها الذاتية وخسرتها أخيرا في معركة ضارية خاضتها بنفسها وحسم فيها القتال على نحو ملائم"**[٣٠]. ثم يحذّر ويستنكر مسبقا أيّ إذعان يمكن أن يصدر من البريطانيين أمام ما يصفه بالخدعة الدبلوماسية فيقول "**سيرتكب رجال الدولة البريطانيون أو بالأحرى قادة الامبراطورية خطأ شنيعا وإثما مشينا فاضحا يستحق الشجب والاستنكار إذا هم أذعنوا عن ضعف لخدعة دبلوماسية أو رضخوا لتهديد أو أقاموا أي اعتبار للحساسيات التركية وسمحوا بأن يقتطع من الامبراطورية أي جزء من بلاد الرافدين "**[٣١] وعلى حد زعمه ليس من حق أحد أن يفرط بهذه البلاد "**التي يحتفظون بها الآن بنحو ثابت ودائم وفقا لحق اكتسبوه دون شك عن طريق الفتوحات العسكرية"**[٣٢]، ويعتقد كرستجي أن أحقية البريطانيين بهذه البلاد مبنية على أمرين أولهما

الفتوحات العسكرية التي بذلت فيها التضحيات وثانيهما القاعدة الشعبية العريضة من أهالي هذه البلاد، إذ إن الوجود البريطاني في البصرة "**سيكون بالتأكيد مرتكزا على قاعدة شعبية عريضة مما سيتعذر عندها نقضه أو دحضه أو منازعته من قبل أية جهة أو قوة كانت**"(٣٣). وحتى لو افترض كرستجي حصول مبررات دبلوماسية تقتضي إعادة بغداد للأتراك إلا إنه لا يجد أي مبرر لإعادة البصرة لهم قائلا "**يجب أن تبقى ولاية البصرة في حوزة البريطانيين، ويبقى المركز التجاري القديم للخلفاء الذي لا يجوز التصرف به في أية حال من الأحوال جزء لا يتجزأ من الامبراطورية البريطانية، وهذا ما يجب أن يكون**"(٣٤).

ومن جانب آخر يحث كرستجي البريطانيين على القيام باستمالة قلوب البصريين "**وبما أن العثماني قد تمت إزاحته الآن وأصبحت عاصمة الخلافة واقعة في أيدي البريطانيين فليس هناك ثمة سبب يحول دون أن يصبح العربي مواطنا محبوبا للامبراطورية التي تمتد فوق نصف مساحة الكرة الأرضية المأهولة بالسكان، فقط إذا استطاع الحكم البريطاني أن يوطد أقدامه في هذه البلاد بالفطنة واللباقة والذوق السليم والتقليل شيئا فشيئا عن عجرفة الاعتداد بالنفس وعنجهية التعالي وصلف الغطرسة التي تجلب الأذى والضرر إلى البريطاني وتجعله رغم خصاله الحميدة العديدة عرضة للكراهية والبغضاء في الكثير من البلدان التي حبته العناية الإلهية بأن عهدت بها إليه أمانة بين يديه**"(٣٥)، وهكذا يرى كرستجي أن ظفر البريطانيين وهيمنتهم سببه العناية الإلهية التي جعلت البصرة أمانة بين أيديهم، لذلك عليهم أن يغلّبوا خصالهم "الحميدة" من أجل المحافظة على تلك الأمانة.

المطلب الثالث

البصرة متحف الأعراق الآسيوية

في سياق حديثه عن مدينة العشار وصف كاتب الرحلة كرستجي هذا القطاع بأنه "**يمثل متحفا متحركا شاملا للأعراق الآسيوية، فكل نوع وصنف من الشعوب السامية، من حضرموت إلى بغداد وما وراءها، ومن الشام ومصر، ومن الهند وكوهات وكابل لهم حضور هنا**"(٣٦). ذاكرا أن هذا التنوع البشري الذي تمثله مدينة البصرة والعشار يشكل بالنسبة للطالب الدارس لعلم الإنسان حقلا واسعا للدراسة والبحث "**فإنك تشاهد هنا وتتزاحم أثناء المشي عصرا مع العرب من حضر ومن بدو، ومع الأتراك، واليهود، والأرمن، والزنوج، والفرس القادمين من مناطق السهول والقادمين من مناطق الجبال الوعرة، والبلوش، والكابوليين، والسوريين، والهنود، والأكراد، والمصريين، والغجر، ومن بين هؤلاء جميعا يتميز الملالي، والصوفيين، والأرمنيين، والحاخاميين اليهود، والمبشرين المسيحيين بأغطية رؤوسهم وأزيائهم**"(٣٧). ثم يضيف الكاتب إلى هذا الجمع المتباين صنفا آخر يتمثل بالمجندين الهنود والجنود البريطانيين تميزهم بدلاتهم العسكرية، مدّعيا أنهم جاؤوا لهذه البلاد فقط "**ليحكموها ويتسلطوا على هؤلاء اليهود والأتراك والكفار والوثنيين**"(٣٨)، وأما السكان العرب القاطنين في البصرة فإن البريطانيين يعتزمون معاملتهم معاملة حسنة ويجعلوهم يتحملون المسؤولية(٣٩). ويبدو أن دعوى المعاملة الحسنة لا تنطلي على المواطن البصري الذي " **يتميز بكونه شخصا حساسا ونافذ البصيرة**"(٤٠)، فسرعان ما ستنكشف أمامه حينما يكون على حال يراه فيها كرستجي مشوش البال، غير عملي، متذمرا من أي تغيير في طبيعة الأمور، ويهتف بـ(لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) عندما يرى من يصفهم كرستجي بـ"**الأسياد من بني البشر يمرون وكبرياء في قيافتهم وتحد في عيونهم**"(٤١) قاصدا بذلك أصحاب السلطة والهيمنة الجديدة في البصرة. لكن كرستجي يتوقع بأن حال

الإنسان العربي البصري لن يدوم طويلا "**وحينما يألف السلطة الجديدة الغريبة فإنه سيحمد الله على هذه النعمة التي أسبغها عليه، لأنه سيرى ويتعلم قيمة السواعد القوية والعقل المبدع الذي يعد بتحويل الصحراء إلى جنة خضراء خصوصا إذا لم يتدخل أحد في معتقداته أو يسأل من أين يكسب ماله**"(٤٢)، وينصح البريطانيين بأنهم لو أرادوا بسط سيطرتهم والاستمرار بالهيمنة على البصرة فعليهم أن لا يتدخلوا بمعتقدات البصري ولا مصادر كسب ماله.

مظاهر الهيمنة في أرض النخيل

للهيمنة مظاهر عديدة وأشكال مختلفة قد تتعلق بنمط حياة الناس وأساليب عيشهم، وقد تتعلق بلغتهم وطريقة تواصلهم، وقد تتعلق بحياتهم الدينية أو الاقتصادية أو غيرها. فأما ما يتعلق بنمط الحياة وأسلوب العيش فيذكر كرستجي أن تواجد البريطانيين في مدينة البصرة يفرض نمطا وأسلوب عيش جديد في هذه المدينة فهؤلاء عندما لا يجدون فندقا يتلاءم مع نمط الحياة الأوروبية، لا يخضعون لنمط حياة الإنسان العربي البصري بل سيجدون البديل عن ذلك فيقومون بتحويل "**الباخرة فرانز جوزيف التابعة لشركة لويد بالنمسا إلى فندق للضباط**"(٤٣)، وأما الرحالة الهندي كرستجي المتواجد في البصرة في تلك الأثناء فيفضل المكوث "**على متن الباخرة زياني طيلة مدة رسوها في مرفأ البصرة**"(٤٤) وهي باخرة قادمة من مدينة بومباي الهندية وكان من بين القادمين على متنها هذا الكاتب الهندي؛ والسبب في ذلك أنه لا يرى حالة مدينة البصرة لائقة به، فهو يرى أن حالتها لا تتناقض مع وصف كينير(٤٥) بأنها "**أقذر مدينة شاهدها على الإطلاق**"(٤٦).

ويوجد قرب محكمة مدينة العشار حمام يرتاده الناس **كـ**"**أفضل حمام من بين العديد من الحمامات أو المسابح العمومية التي تفخر بها البصرة حيث تتردد عليه الشخصيات المرموقة في المدينة حينما ترغب في الاستحمام**"(٤٧)، لكن كرستجي يستهجن ذلك مستقذرا

المكان، ويتجنى أيضا على أهل المساكن العادية بوصفهم سكانا وسخين وقذرين فيقول: "**أما المساكن العادية في مدن الخليج فقد اعتادت على الحياة دون الحاجة للاستحمام أو لمرافق الزينة والاغتسال الأخرى، إذ من الواضح أن السكان العرب لا يميلون إلى الاستحمام ولا يألفونه**"(٤٨).

أما فيما يتعلق بلغة الناس وطريقة تواصلهم فإن كرستجي يرى أن اللغة التي يجب أن تكون مهيمنة في البصرة هي اللغة الانكليزية لأنها "**أداة وصل وسلسلة قوية تربط بين جميع الأجزاء المختلفة والأقاليم الواسعة المترامية الأطراف التي تتألف منها الامبراطورية، ففي كل مكان يخفق فيه العلم البريطاني يجب أن يتحدث جميع المثقفين عامة باللغة التي نطقها وكتبها وأشهرها (شكسبير) و(ملتون) و(وردز وورث) و(بيرك) و(بايرون) و(لونغفيلو) و(أمرسون) والمئات من كبار الأدباء البارزين**"(٤٩).

ومن جانب آخر وفيما يتعلق بالحياة الدينية يصف كرستجي مقر الإرسالية الأمريكية "وهي إرسالية أمريكية بروتستانتية ذات أهداف تبشيرية في منطقة الخليج العربي وشبه الجزيرة"(٥٠) وصفا متكاملا "**بمدارسها، ومستشفاها، وعياداتها، وورشها، ومساكنها ذات الطابق الواحد**"(٥١) ويصور العاملين فيها بأبهى صورة قائلا "**إن الحس العملي وحسن التصرف والتسامح العفوي الذي تؤدي به هذه الإرساليات عملها يجعلها تلقى ترحيبا كبيرا وشعبية واسعة لدى الأهالي، وجميع الذين اتصلوا بها وجربوا أنشطتها الخيرية يثنون عليها غاية الثناء ويقدرونها تقديرا عاليا**"(٥٢). وكانت هذه الإرسالية أُنشئت تحت غطاء خيري تبشيري لتخدم الأهداف الاستعمارية. وفي المسار نفسه أنشأت جمعية الشبان المسيحيين(٥٣) فرعا لها في البصرة لتحقق هدفين أولهما "**تلبية المطالب الروحية للغربيين**

الذين بدأوا يستوطنون بسرعة على ضفاف الشط"[٥٤] وثانيهما "**تعليم المسلم السامي العرق كيف يتبع طريقا أكثر وثوقا نحو السماء تجعله يحيد عن دينه وعقيدته"**[٥٥].

وضمن الهيمنة الاقتصادية يتوقع كرستجي من السلطة البريطانية بناء حكومة قوية، مستقرة، قادرة متحررة، ونزيهة يمكن الوثوق بها والاعتماد عليها وقبولها لتعيد للعراق عموما والبصرة بالخصوص المجد والازدهار "**وستنعم البلاد في ظل مثل هذه الحكومة بمستقبل مشرق واعد بحيث تكون بغداد عاصمة لها متفوقة بذلك على شهرة وأمجاد الخلفاء، وتكون القرنة والبصرة والفاو أسواقها التجارية ذات الشهرة العالمية"**[٥٦]. ولتحقيق تلك الهيمنة لا بد من القيام بالكثير من العمل لإزالة العقبات مثل إزالة الوحل عند مدخل جرف البصرة على رأس الخليج الذي يمثل "عقبة كأداء" في طريق البواخر "**وقد قامت الحكومة البريطانية التي تسيطر الآن على البصرة وكافة أراضيها بحيويتها المعهودة بالنشاط والرأفة بالبدء في عمليات كسح الوحل الرامية إلى التخفيف من أعباء الصعوبات الناجمة عن مثل هذه العقبات الخطيرة والمعيقة)**[٥٧] .

وأما النخلة التي يصفها كرستجي بالأصيلة التي تنمو وتترعرع في تربة بلدها الحقيقي فيفترض الكاتب أن بالإمكان الإفادة منها "**في خدمة مهنة أو صنعة بريطانية على سبيل التحسين الاجتماعي أو ستقام لها صناعة جديدة من أجل استغلالها على الوجه الأكمل"**[٥٨]. ويأتي كرستجي على مسألة تحريم الإسلام للمسكر المصنوع من التمر فيقول "**إذا كانت الوصايا القرآنية تصون الناس – دعنا نأمل ذلك – من مخاطر الغواية في الإدمان على تعاطي هذا السائل السكري سواء كان طازجا أو مخمرا أو مقطرا وهو السائل الذي يرقص له قلب الكاهن المجوسي طربا وتنفرج له أساريره فرحا وابتهاجا"**[٥٩]، ويبدو أن الكاتب يريد من خلال ذكره لهذه الحرمة إيصال فكرة مفادها "**أنه لا يوجد شيء يمنع**

دون تحويل عصارة النخيل إلى مادة ذات فائدة كبيرة عن طريق تصنيعه وإحالته إلى سكر وبالتالي إضافة سلعة جديدة مربحة في تجارة الشط وبلدان الخليج"[٦٠]، وهذا الربح لا يصح أن يتحقق بالطبع في رأي الكاتب إلا على تلك الأيدي البريطانية "النزيهة المقتدرة"!.

وبغية استمرار هذا الوجود البريطاني المهيمن على البصرة ومقدراتها ومن أجل فتح "صناديق الثروة على مصراعيها" تقوم هذه السلطة بتسخير كافة الإمكانات والأنشطة الحربية المحمومة حيث ازدحمت ضفة الشط بالبواخر من مختلف الأحجام والأنواع، فلم يخطر ببال الإنسان البصري من قبل وعبر تاريخها الممتد لقرون أن يرى مثل هذه الأشياء والأعمال حيث "**تشاهد هناك إنزال القوات، ورحيل للقوات، وزحف للقوات، كما تشاهد الرافعات البخارية الضخمة الطافية فوق الماء وهي تنقل المدافع الكبيرة وعربات السكك الحديدية بكاملها والزوارق البخارية من البواخر إلى الشاطئ، وتشاهد أيضا هناك قاطرات متحركة تجر وراءها عربات كاملة للقطارات وهي تنفث الدخان المتقطع في الهواء متنقلة بين مرجيل والقرنة، وكذلك السيارات، والشاحنات، والدراجات النارية والدراجات الهوائية وهي تذرع الطريق ذهابا وإيابا أو تنطلق مسرعة في هذا أو ذاك الاتجاه، إضافة إلى مراكب التجديف الثقيلة وبواخر التغديف وهي تمخر عباب مياه الشط، وكذلك السفن المستشفيات الضخمة الراسية هناك في الوقت الذي تنحدر فيه الشمس نحو الغروب متوهجة بالأنوار الحمراء والخضراء والبيضاء، كما تشاهد السفن البخارية العملاقة الكاسحة للطمي، والمراكب الحديدية الضخمة ذات الفتحات الواسعة الصالحة كل واحدة منها لنقل خمسين طنا من الحمولة**"[٦١]. ولا يفوت كرستجي أن يذكر إلى جانب ذلك كله الطائرات التي يصفها بمعجزة العصر فيتخيل مناورتها في الجو بأجنحتها الهادرة ويصف سرعتها وكأنها تزيد على سرعة طائر الرخ الأسطوري لتحقق بذلك قول شاعر يستشهد كرستجي بنبوءته التي يقول

فيها "**أساطيل الجو العالقة في كبد السماء الزرقاء الصافية**"(٦٢). ويمضي كرستجي في تصوير مشاهداته بدقة متناهية فلا يفوته ذكر المصابيح الكهربائية وهي تملأ ذلك الحي الذي يقطنه الاحتلال العسكري البريطاني والذي يقع عند الواجهة النهرية في البصرة، ولا ينسى ذكر السكة الحديد الممتدة عند نهاية هذه البقعة دون انقطاع إلى القرنة وبغداد وسامراء وأبعد من ذلك باتجاه الشمال، بل حتى الصحراء المقفرة الشاسعة التي يسعى ويدب فيها سكان قلائل يصفهم كرستجي بالبدو المتخلفين يحاول صياغة صورة لها وهي تتدفق حيوية جديدة لم تعرفها ولم تشهدها من قبل(٦٣).

ويرى كرستجي أن هذه القائمة من عجائب المخترعات العصرية المفاجئة والممتعة في نظره ستصيب البصراوي بالدهشة والذهول وتتركه في حال تشبه حال أصحاب الكهف بعد إفاقتهم من السبات الطويل، ويتصور كرستجي أن غفوة البصراوي لا بد أن تنتهي ولا بد أن ينشط ويبذل ما في وسعه ليجاري "**مواطنيه الهنود الذين يتميزون باليقظة والإقدام**"(٦٤). وحتى البصراوي المحافظ الذي يترك الحبل على غاربها وينسب الأمور للأقدار والقسمة والنصيب يحتاج برأي كرستجي للتأمل فيما يجري حوله ويفكر تفكيرا عميقا في الأموال التي تنفق يوميا في الخفاء وبغير حساب من أجل بناء قوي راسخ، وعليه أن يعيش حالة من الأمل الواقعي "**بأن الذي يجري هنا يعني في حقيقة الأمر استمرارية الاحتلال البريطاني الذي لا يشعرون بأي نفور منه، بل إنهم يتطلعون قدما نحو هذه الغاية**"(٦٥)، فالكاتب هنا يفكر نيابة عن البصراوي بأن من مصلحته أن لا يشعر بأي نفور من الاحتلال البريطاني وعليه أن يتطلع نحو هذه الغاية لكي يتحقق التقدم عبر هيمنة الاحتلال.

وقد هيمنت القوات البريطانية على قرية واقعة في مدينة البصرة تدعى مرجيل، وهي عبارة عن منتجع يرتاده أهالي البصرة للنزهة والترفيه لتقوم بتحويلها "**إلى منتجع خصوصي**

مغلق محجوز للأوروبيين فقط الذين جلبتهم الحرب إلى البصرة"(٦٦)، كما قامت بتجريف بساتين النخيل المتفرقة في هذه الناحية وما حولها.

ومن مظاهر الهيمنة محاولة إبراز الهوية البريطانية في البصرة بأشكال متعددة منها إطلاق تسميات جديدة للمناطق والشوارع لتضفي عليها مسحة بريطانية فقد "**علقت عند الأطراف لافتات تحمل أسماء الشوارع والمناطق مكتوبة بالحروف اللاتينية والعربية، وبعض هذه الأسماء تفصح على نحو واضح بأكثر من أي شيء آخر عن هويتها البريطانية، فعلى سبيل المثال يوجد شارع الحاكم وشارع الامبراطور وشارع أكسفورد وشارع جيبور والكنيسة وزاوية هايد بارك**"(٦٧)، ومن أشكال إبراز الهوية البريطانية محاولة إضفاء القدسية على الهيبة البريطانية المتمثلة بالفارس وهو يعمل مع القس الذي جاءت به جمعية الشبان المسيحيين لذلك الغرض فهما "**يمثلان مؤسستين انكليزيتين عريقتين تعملان معا على إبراز الهوية البريطانية**"(٦٨).

ويذكر كرستجي صورا لممارسات عنصرية قام بها البريطانيون ضد أهالي البصرة نابعة من شعورهم بالتفوق العرقي والاستعلاء على الآخر، فقد جرى تطبيق أوامر مشددة أصدرتها السلطات العسكرية البريطانية تقضي بأحقية الصدارة وأولوية السبق للأوروبي أثناء تواجده في أي مكان من البصرة سواء كان ذلك الأوروبي جنديا أم مدنيا، تابعا أم متبوعا، رئيسا أم مرؤوسا، وما على أهالي البلاد الأصليين سواء كانوا من علية القوم أو من أدناهم إلّا الإذعان والتسليم لهذا الأمر "**وإذا أراد اثنان أو ثلاثة من البريطانيين أن يسيروا جنبا إلى جنب كما يفعلون عادة في الأزقة الضيقة فيتوجب على العربي أو أي شخص آخر من الأهالي والغرباء أن يتخلى عن الطريق ويلزم جانب الجدار، وإذا جاء بعض هؤلاء الأكابر في عربة يجرها حصان وجاءت في الجهة المقابلة عربة أخرى محملة ببعض الرجال من**

الأهالي فعلى العربة الأخيرة أن تتوقف وتفسح الطريق لمرور هؤلاء (الأصحاب) الأجلاء لكي يمروا أولا، وعند طرفي الجسر الموصل بين شمال وجنوب العشار يقف الجنود حراسا لمنع الأهالي من استخدام الممر الرئيسي أو الأوسط العريض حينما يعبر أو على وشك العبور فيه (صاحب) أوروبي ذلك الكيان الرفيع المتعالي، وعلى الأهالي أصحاب البلاد الأصليين ومالكيها السابقين أن يتريثوا ويزدحموا في الشريط الضيق لممر المشاة الخشبي على كلا جانبي الجسر حتى يجتازه (الصاحب) الأوروبي – أي شخص أنكلوهنديا – وهو يختال في مشيته المتروية. ويتوجب على حوذي صاحب عربة الحصان والنوتي صاحب قارب (البلم) تحت طائلة العقاب أن يمنحا أولوية الركوب لمثل هذا المستأجر الأوروبي حتى وإن كانت مركبته يحتلها راكب محلي من أبناء البلاد"[٦٩]. وبالرغم من أن كرستجي يصطف مع الوجود البريطاني في البصرة ويدعو ويشجع على استمراريته، فإنه يستهجن تلك الممارسات التي يعتقد بأنها تقوض هذا الوجود وتؤدي إلى زواله عاجلا أو آجلا، فيستهجن كرستجي وصية كاتب انكليزي سمّاه سوين في كتاب له يوصي فيها "**باستخدام العنف كوسيلة ضرورية ومشروعة لإرغام النوتي صاحب (البلم) وأمثاله على الالتزام بالنظام إذا بدر منه أي تصرف، وفقا لتصور الأوروبي، مخل بالاحترام والآداب أو طالب بأجرة أكثر**"[٧٠]، ويعلق كرستجي على استحسان ذلك المؤلف لحادثة "**قيام قسيس بجلد أحد الأهالي بالسوط وقيام ضابط روسي بإلقاء آخر في الشط إرضاء لنزوة وهمية في الاستخفاف بالآخرين وازدرائهم وإذلالهم**"[٧١]، فيعبر كرستجي عن عدم رضاه بذلك واصفا الغربي بالمتكبر الذي يعتقد أنه من اللائق ممارسة تلك النزوة، وساخرا من القس الذي ينسى تعاليم سيده المسيح ومن الروسي الذي ينسى أنه لا يعدو كونه قوزاقيا، ثم ينعت كرستجي وصية المؤلف سالف الذكر باستخدام العنف بأنها حماقة خرقاء تستند إلى سطحية التفكير والافتقار إلى المنطق، ويبرز تلك الحماقة رسم هزلي بعنوان (المطرود) ظهر في عدد من

جريدة (بصرة تايمز) يستشهد به كرستجي "**يمثل ضابطا أو موظفا بريطانيا يرتدي قميصا طويل الأكمام، يتظاهر بمخاطبة خادمه الهندوسي باللهجة العامية الدارجة وإساءة فهم الجواب، فيرفس الخادم التعس بعنف ويلقيه خارج الغرفة**"(٧٢)، فيعلق كرستجي على ذلك قائلا "**قد يكون هذا عرضا هزليا للبسالة والهيبة البريطانيتين إلا أنه يعكس العواقب المأساوية التي تؤدي إليها مثل هذه الممارسات**"(٧٣).

وكان يعتقد كرستجي أن هذه الممارسات ستؤدي بصورة جدية إلى طرد البريطانيين من البلاد "**حينما تثار مسألة تقرير المصير بعد انتهاء الحرب**"(٧٤)؛ لأنه لم يتوقع أن يعاني العربي كما يعاني الهندي منذ أمد طويل، وفي المقابل فإن هذا العربي سيكون مستعدا للقبول بالسلطة الجديدة إذا تم الإسراع بعدم تشجيع "**هذه الأساليب وغيرها من الأساليب الروتينية الجامدة المماثلة والتصرفات الغريبة الرامية إلى فرض الاحترام والهيبة**"(٧٥)، ليعم السلام والرخاء في هذا البلد العربي الذي صار ينتمي للإمبراطورية البريطانية بحسب رأي كرستجي، فهو يرى أن المفهوم السائد قبل الحرب وأثناءها عن التفوق العرقي وما فيه من غطرسة ينطوي على مخاطر كبيرة؛ لذلك يدعو إلى نبذه وإهالة التراب عليه.

الهوامش:

(١) ينظر: موسوعة النظريات الأدبية، نبيل راغب، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ط١، ٢٠٠٣، ٢٩-٣٠.

(٢) ينظر: موسوعة النظريات الأدبية، ٣٠.

(٣) الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، إدوارد سعيد، ترجمة محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٥،٤٤.

(٤) ينظر: أرض النخيل، سي. ام. كرستجي، مطبوعات بانوراما الخليج، ط١، البحرين، ١٩٨٩، ٥-٦.

(٥) أرض النخيل، ١٣٨.

(٦) أرض النخيل، ١٣٨.

(٧)أرض النخيل، ١٣٨.

(٨) أرض النخيل، ١٣٨.

(٩) أرض النخيل، ١٣٨.

(١٠) أرض النخيل، ١٣٨.

(١١) أرض النخيل، ١٣٨.

(١٢) أرض النخيل، ١٣٨.

(١٣) أرض النخيل، ١٣٨.

(١٤) أرض النخيل، ١٣٨.

(١٥) ينظر: أرض النخيل، ١٣٨.

(١٦) أرض النخيل، ١٣٨.

(١٧) جون مالكوم (١٧٦٩-١٨٣٣م) هو جندي وإداري في إدارة الاستعمار ودبلوماسي ولغوي ومؤرخ بريطاني، وهو مبعوث سابق إلى بلاد فارس وحاكم بومباي.

(١٨) أرض النخيل، ١٣٩.

(١٩) أرض النخيل، ١٣٩.

(٢٠) ينظر: أرض النخيل، ١٣٧.

(٢١) ينظر: أرض النخيل، ١٣٧.

(٢٢) أرض النخيل، ١٣٧.

(٢٣) أرض النخيل: ١٧١.

(٢٤) أرض النخيل، ١٧٤.

(٢٥) أرض النخيل: ١٦٠.

(٢٦) أرض النخيل: ١٦٠.

(٢٧) أرض النخيل، ١٦٠.

(٢٨) أرض النخيل، ١٣٧.

(٢٩) أرض النخيل، ١٣٧.

(٣٠) أرض النخيل، ١٩٠.

(٣١) أرض النخيل، ١٩٠.

(٣٢) أرض النخيل، ١٩٠.

(٣٣) أرض النخيل، ١٩٠.

(٣٤) أرض النخيل، ١٨٨.

(٣٥) أرض النخيل، ١٧١.

(٣٦) أرض النخيل، ١٧٠.

(٣٧) أرض النخيل، ١٧٠.

(٣٨) أرض النخيل، ١٧٠.

(٣٩) ينظر: أرض النخيل، ١٧٠.

(٤٠) أرض النخيل، ١٧٠.

(٤١) أرض النخيل، ١٧٠.

(٤٢) أرض النخيل، ١٧٠.

(٤٣) أرض النخيل، ١٦١.

(٤٤) أرض النخيل، ١٦١.

(٤٥) كينير أحد كبار الرحالة في بلدان الشرق، له كتاب يتعلق بجغرافية فارس يصف فيه مدينة البصرة. ينظر: أرض النخيل، ١٦١.

(٤٦) أرض النخيل، ١٦١.

(٤٧) أرض النخيل، ١٦٤.

(٤٨) أرض النخيل، ١٦٤.

(٤٩) أرض النخيل، ١٩٤.

(٥٠) التبشير في منطقة الخليج العربي دراسة في التاريخ الاجتماعي والسياسي، الدكتور عبد المالك خلف التميمي، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات، ٢٠٠٠م، ٣٩.

(٥١) أرض النخيل، ١٦٥.

(٥٢) أرض النخيل، ١٦٥.

([٥٣]) "جمعية الشبان المسيحيين رابطة دينية اجتماعية ألفها السير جورج ويليس في إنكلترا سنة ١٨٤٤ ولم تلبث طويلا حتى عمت فروعها أرجاء المعمورة"، ينظر: جمعيات الشبان المسيحيين والمسلمين عندنا وعندهم، ت، مجلة الهلال، مصر، العدد٦، ١ أبريل ١٩٢٨، ٧١٣.

([٥٤]) أرض النخيل، ١٦٥.

([٥٥]) أرض النخيل، ١٦٥.

([٥٦]) أرض النخيل، ١٩٣.

([٥٧]) أرض النخيل، ١٣٦.

([٥٨]) أرض النخيل، ١٤٦.

([٥٩]) أرض النخيل، ١٤٦.

([٦٠]) أرض النخيل، ١٤٦.

([٦١]) أرض النخيل، ١٧٣.

([٦٢]) أرض النخيل، ١٧٣.

([٦٣]) أرض النخيل، ١٧٤.

([٦٤]) أرض النخيل، ١٧٣.

([٦٥]) أرض النخيل، ١٧٤.

([٦٦]) أرض النخيل، ١٧٣.

([٦٧]) أرض النخيل، ١٧٦.

([٦٨]) أرض النخيل، ١٧٧.

([٦٩]) أرض النخيل، ١٧٧.

([٧٠]) أرض النخيل، ١٧٧.

([٧١]) أرض النخيل، ١٧٧.

([٧٢]) أرض النخيل، ١٧٨.

([٧٣]) أرض النخيل، ١٧٨.

([٧٤]) أرض النخيل، ١٧٨.

([٧٥]) أرض النخيل، ١٧٨.

المصادر:

١. أدب الرحلات، حسين محمد فهيم، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٩.

٢. أرض النخيل، سي. ام. كرستجي، مطبوعات بانوراما الخليج، ط١، البحرين، ١٩٨٩.

٣. الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، إدوارد سعيد، ترجمة محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٥.

٤. التبشير في منطقة الخليج العربي دراسة في التاريخ الاجتماعي والسياسي، الدكتور عبد المالك خلف التميمي، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات، ٢٠٠٠م.

٥. موسوعة النظريات الأدبية، نبيل راغب، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ط١، ٢٠٠٣.